دراسات فى الفن

الفن هو الانتاج الروحى

للأستاذ عزيز أحمد فهمى

يقول علماء البلاغة والتربية والمنطق وغيرهم من العلماء الذين يتصدون لدراسة العلوم المتصلة بالفنون أو العلوم التى من فوقها فنون : إن الفن هو التطبيق العملى للقوانين الخاصة بموضوع ما. فإذا كان موضوع البلاغة هو جمال الكلام فإن فن البلاغة هو التطبيق العملى للقوانين التى يحصل الجمال للكلام باتباعها . وإذا كان موضوع التربية هو تنشئة الأحداث على وجه من الصلاح أو على أوجه الصلاح كلها فإن فن التربية هو التطبيق العملى للقوانين التى يتم صلاح الأحداث باتباعها على وجه من الوجوه أو على أوجه الصلاح كلها ؛ وإذا كان موضوع المنطق هو ربط الكلام على الحق الصادق حتى يطابقه فلا يزيد عليه ولا ينقص عنه فن المنطق هو التطبيق العملى للقوانين التى يتحقق باتباعها هذا الربط وهذه المطابقة

وبهذا التفصيل وبهذا التيسير أباح العلماء لأنفسهم ولتلاميذهم أن يستضعفوا الفنون وأن يستسهلوها وأن يعدوها ، ما داموا قد وجدوا هذا التعريف الذى استنبطوه لها شيئاً ، يمكن أن يحققه كل إنسان ، وأن يمضى فى تحقيقه ما شاء له تهاون هذا التعريف الذى يمنع عن الفن ما يلزم لحدوثه ، اللهم إلا أن يكون تطبيقاً عملياً للقوانين ... وبهذه الإباحة كثر الكتاب الذين يطبقون فى كتاباتهم قوانين البلاغة ، وكثر المربون الذين يطبقون قوانين التربية ، وكثر المجادلون وتفاقم عدد المحامين الذين يطبقون قوانين المنطق . ومع هذه الكثرة فلا يزال الكتاب المبدعون قليلين ، ولا يزال المربون المثقفون نادرين ، ولا يزال المجادلون والمحامون الساطعون يعدون فى الجيل على أصابع اليد أو على أصابع اليدين

فلو كان الفن حقاً هو التطبيق العملى للقوانين لكان كل من يعرف الطريق إلى هذا التطبيق فناناً كما كان كل من يعرف الطريق إلى تطبيق القوانين الخاصة بالأعداد حاسباً ، وكما كان كل من يعرف الطريق إلى تطبيق القوانين الخاصة بعناصر المادة كيميائياً .

ولكن الأمر ليس كذلك . فبعض ما يدس على الناس فى ثوب الفن ليس فناً ، وبعض ما يساق إلى الناس مجرداً من ثوب الفن هو فى الحقيقة فن . ولا بد أن يكون القارىء قد سمع لحناً من الألحان قال عنه صاحبه ومن يروجون له ، إنه موسيقى وجعلوا دليلهم على قولهم أن فيه تطبيقاً عملياً لقوانين الأصوات والأنغام فى الوقت الذى لم يستشعر فيه حين سمعه إلا هذا التطبيق العملى وحده لهذه القوانين دون أن يدفع هذا اللحن إلى نفسه عاطفة ينقلها من نفس صائغه ، أو خيالاً ينبعث من روحه ، ويعبر عن إحساسه وذوقه وذاته . هذا بينما لا بد أن يكون القارىء قد راعه يوماً شراب أو عطر ألفه كيميائى ممن تنفذ نفوسهم وأذواقهم إلى تطبيقهم العملى لقوانين المادة وعناصرها . وكما أنه لا بد أن يكون قد سمع عن نسبية أينشتين ، فأحس من كثرة ما قيل عن غموضها وتعقيدها وتناسيها أنها ليست تطبيقاً مجرداً لقوانين الأعداد وإنما هى حسبة فيها شىء من روح أينشتين نفسه لم يصل إليها إلا لأنه يتجه فى تطبيقه لقوانين الأعداد اتجاهاً خاصاً به هو، مرجعه إحساسه الذى قاد تفكيره .

فإذا سلمنا بهذا استدعى الإنصاف أن نحكم على ذلك الموسيقى الذى لا يضع فى لحنه إلا التطبيق العملى لقوانين الصوت والأنغام

بأنه غير فنان . وعلى هذا القياس كان غير فنان كذلك كل من يتصدى لأى فن من الفنون وليس معه إلا ما اكتسبه من معرفة القوانين الخاصة بهذا الفن ، ومعرفة طرق تطبيقها . كما أن الإنصاف يستدعى إلى جانب هذا أن نصف بالفن كل من ينتج إنتاجاً فيه من نفسه وذوقه كأينشتين الذى ابتدع النسبية وكل كيميائى يبتدع شراباً أو عطراً فيه من ذوقه .

والنتيجة اللازمة لهذا هى أن ينهار هذا التعريف الذى وضعه علماء البلاغة والتربية والمنطق وأمثالهم للفن . فهو تعريف غير جامع مانع كما يقولون هم ، لأنه يسمح للأدعياء بالدخول فى زمرة الفنانين ، كما أنه يحرم فنانين حقيقيين من الاستمتاع بحقهم الطبيعى فى الاتصاف بالفن بينما هم جديرون بأن يتصفوا به

وما دام هذا التعريف قد انهار فقد لزم أن نبحث عن تعريف آخر تقيمه مقامه ويكون فيه الجمع والمنع اللذان تتطلبهما صحة التعريف

أما أنا فأحب أن يكون تعريف الفن هو هذا العنوان الذى وصدته على رأس هذا الحديث وهو أن الفن هو الإنتاج الروحى . ولست أرى من عيب لهذا التعريف إلا أنه يسمح لكثير من الأعمال البشرية التى اعتاد الناس ألا يحسبوها بين الفنون بأن تكون فنوناً . فهو يسمح للنجارة إذا كان فيها من روح النجار وذوقه الخاص أن تكون فناً ، كما يسمح لصيد السمك إذا كان فيه من وسيلة خاصة ترجع إلى ذوق الصياد وتلهمه إياها روحه أن يكون فناً . وهكذا فليس من عيب فى هذا التعريف إلا إمكان تعميمه على الأعمال البشرية جميعاً

وقد لا يكره هذا التعميم إلا القلة الخاصة من الفنانين الذين يبدعون تلك الفنون التى اصطلح الناس على تسميتها فنوناً جميلة . فهؤلاء وحدهم أو بعضهم هم الذين يحبون أن يقتصر الاتصاف بالفن عليهم فلا يكون النجار فناناً ، ولا يكون صياد السمك فناناً ، ولا يكون أحد من الناس فناناً إلا من كان أديباً أو موسيقياً أو ممثلاً ، أو رساماً ، أو واحداً من هؤلاء الذين يسبحون فى « السموات العلى » لا لشىء إلا أنهم اعتادوا التعالى على البشرية بأدبهم وموسيقاهم وتمثيلهم ورسمهم

غير أن هذا فى الواقع نوع من الأرستقراطية القاصرة ، أو المقصورة يكرهه الفن الصحيح . والفن لا يكرهه لأنه ديمقراطى بطبعه أولأنه بلشفى ، وإنما يكرهه لأنه دون الأرستقراطية التى يحبها لنفسه . فالفن متعصب كل التعصب لأرستقراطية الروح ، وهو يفخر بأن ينسب إلى نفسه كل ما انتسب إلى الروح من أعمال البشر ، حتى ولو كان نجارة أو صيد سمك ، ولكنه يأبى أن ينسب إلى نفسه كل ما خلا من الروح حتى ولو كان لحناً أو شعراً أو رسماً .

والفن فى هذا لا يحيد عن الحق . وأشرف للفن أن يحتضن النجارة وصيد السمك متى جمعنا الروح والذوق ، من أن يحنو على كلام سخيف منظوم ولكنه ميت ، ومن أن يدخل إلى حظيرته ألحاناً روعى فيها أن تكون تطبيقاً عملياً لقوانين الصوت والنغم ، ولكنها ما تزال جامدة كأنها الصوت ضغط وتركز حتى تحجر ! . . .

ولا أظن أهل الفنون الجميلة إلا مقتنعين بهذا الرأى ، وما أظنهم بعد اليوم إلا آخذين به ، فهم مقربون إليهم كل من تنفذ روحه إلى عمله ، وكل من يسرى من نفسه إلى عمله لونه الخاص بطبعه وبلونه ، فيكون عمله تعبيراً عنه يعرف به . وهم مبعدون عنهم كل أجرد النفس ، قاحل الحس ، مجدب الروح والشعور ، وإن قضى حياته يعزف على الأوتار ، أو يسود الصحائف بالحبر .

وقد يعنينا أن يؤمن الفنانون بهذا الرأى مثلما يعنينا أن يؤمن به الجمهور ، وأن يأخذ به النقاد أخذاً شديداً ، وأن يعدلوا عن قياس الفنون إلا بمقياسه ، وأن يشيع قياسهم لبقية الأعمال البشرية بهذا المقياس . فإنهم إذا فعلوا هذا فإنهم سيبرئون الفنون من طفيليات كثيرة تلتصق بها وتدعى النسبة إليها ، كما أنهم سيعودون بالحق فيعترفون لكثير من الأعمال البشرية الفياضة بالروح بأنها فنون .

صحيح أنه مقياس قاس ، ولكنه فى الوقت نفسه مقياس عادل ، إذ يرد إلى كثيرين من أصحاب الجهاد الروحى اعتبارهم الإنسانى بعد ما ظلوا الأحقاب الطويلة وهم لا يحسون بين الناس إلا على أنهم صناع أو عمال . زد على ذلك أنه سيكشف

لنا الأقنعة عن وجوه كثيرة متنكرة : لها أرواح ولها فنون ولكنها تتكلف فى الحياة فنوناً غير فنونها فتعيش فيها ميتة بدون أرواح لأن أرواحها منصرفة إلى ما تصبو إليه

ولكى يتصور القارئ قسوة هذا القياس فليطبقه على بعض الأعلام من الذين يقال عنهم فى مصر إنهم فنانون

فلنأخذ فى الأدب مثلاً الأستاذ أحمد أمين ، ولنأخذ فى الموسيقى مثلاً الأستاذ محمد عبد الوهاب ، ولنأخذ فى التمثيل مثلاً الأستاذ جورج أبيض ، ولنأخذ فى الرسم مثلاً الأستاذ محمد ناجى الذى كان ناظراً لمدرسة الفنون الجميلة العليا إلى عهد قريب

أما الأستاذ أحمد أمين فقد أثبت عليه الدكتور زكى مبارك فى مقالاته الأخيرة بالرسالة أنه أستاذ يكتب ولكنه لا يسرى من روحه شىء فى كتابته ، فأنت لا تعرفه حين تقرؤه إذا كان راضياً أو كان غاضباً ، وأنت لا تشعر به إلا هادئاً دائماً وقوراً . وحسبه هدوءاً ووقوراً ما سجل عليه الدكتور زكى مبارك مظهره وهو أنه عاش وقتاً طويلاً فى الواحات فلم يعرف الناس أنه عاش فى الواحات إلا يوم أعلنت هذه الحقيقة الغريبة على صفحات الرسالة فى الجدال الأخير . بل حسبه هدوءاً ووقوراً وبعداً بفنه عن الروح أنه كان قاضياً ومع هذا فإنه لم يكتب قصة واحدة من قصص الحياة التى عرضت له وهو فى القضاء . وهذا دليل على أنه يعيش فى دنيا ، ويكتب فى دنيا أخرى . وهذا يستدعى واحدة من اثنتين : فإما أن يكون الأستاذ أحمد أمين بروحين يعيش بواحدة ويكتب بالأخرى ولا صلة مطلقاً بين الواحدة والأخرى ، وإما أن يكون كما هو الآن متنكراً يعيش ويكتب فلا تعرفه على حقيقته ما عاش أو كتب

والأستاذ محمد عبد الوهاب لا يخلو له لحن من لحن موسيقى يستحسنه فى موسيقى سيد درويش أو فى الموسيقى الغربية ؛ ولا معنى لهذا إلا أن يكون الأستاذ عبد الوهاب عاجزاً عن إطلاق روحه بالتعبير الموسيقى ذى العاطفة أو الخيال على وجه من الحسن يرضيه، أو أنه عاجز عن التعبير الموسيقى أصلاً . فإذا أضفنا إلى اضطرابنا هذا فى أمره أنه كثيراً ما يخطئ فى التصوير الموسيقى فيصور الفرح بأنغام الحزن ، والحماسة بأنغام الخلاعة ، والأنين بأنغام الطرب، عزز هذا لدينا سوء الظن به وقادنا هذا إلى الحكم على فنه بأنه مقطوع الصلة بالروح ، وإلا كانت روحه مجنونة مختلطة الأحاسيس تضطرب إذ تشعر وإذ تعبر عن شعورها وهو ليس كذلك ، وإنما روحه هى المنصرفة إلى شىء آخر غير الإبداع الموسيقى لأنها لم تخلق له . فالأستاذ محمد عبد الوهاب فنان متنكر مثل الأستاذ أحمد أمين

والأستاذ محمد ناجى الذى يقنع فى فنه بأن يرسم خطوطاً تشبه ما يراه من الخطوط فى الخارج ، وأن يصبغها بألوان تشبه ما يراه من الألوان فى الخارج — لا يمكن أن يزيد فى اعتبار الفن « الرسم » على أنه نقاش أمين — إذا كان أميناً — يعنى الفنان الذى يحتاج إلى نسخ كثيرة من الصورة الواحدة على آلة من آلات الطباعة ، زد على ذلك أنه يحتاج دائماً إلى شرح صوره بكلام وإشارات يتقنها أكثر مما يتقن التصوير ، ويصل بها إلى إقناع جمهوره الذى يدعوه إلى مشاهدة صوره أو الذى يبيع له صوره، بجمال هذه الصور وروعتها، إذ يقعد هذا الجمهور عن إدراك هذا الجمال إذا اكتفى بالنظر إلى هذه الصور . فالأستاذ ناجى هو أيضاً مثل صاحبيه فنان متنكر : يحترف شيئاً لا يتقنه ، ويتقن شيئاً لا يحترفه

أما الأستاذ جورج أبيض الذى لم يتقن إلى اليوم إلا الأدوار الثلاثة أو الأربعة التى تعلمها أيام كان طالب بعثة التمثيل المصرية فى باريس وهى عطيل ولويس الحادى عشر والملك لير ومضحك الملك فيما أظن، وقد أتقنها جميعاً بالأسلوب الفرنسى التلحينى الذى تعلمه فى فرنسا والذى يصرخ فى مشاهديه بين كل كلمة وأخرى، وبين كل حرف وآخر بأنه تمثيل ليس فيه من الطبيعة ولا حتى من التطبع شىء . . . الأستاذ جورج أبيض الذى انحصر فنه فى هذا وحده يحرجنا كثيراً إذا طالبنا بأن نعترف له بأنه فنان فيه روح نافذة معبرة ... تظهر فى تمثيله ...

وقد يسألنا سائل كيف نجح هؤلاء الأساتذة فى حياتهم على الرغم مما تنكره عليهم جميعاً من صلة فنونهم بأرواحهم . ونحن نجيب عن هذا بأن ثلاثتهم: أحمد أمين ومحمد عبد الوهاب ومحمد ناجى قد نجحوا لأن لهم أرواحاً تسرى فى أعمالهم ولكن من طريق